الدين والعلم

للاستاذ البرت اينشتين

كلّ ما يأتيهِ الانسان من عمل وتفكير انما يأتيهِ اشباعاً لحاجات يحسّ بها او فراراً من الالم . ولا بدّ من تذكر هذا القول اذا حاولنا ان نستقصي النهضات الروحية او العقلية وكيف تنشأ وتترعرع. لان الشعور والتوق هما القوتان المحركتان للسعي الانساني والانتاج الانساني في اي شكل من الاشكال تجلى هذا السعي او تجسم ذلك الانتاج

فما هو الشعور وما هي الحاجات التي حملت الانسان على التفكير تفكيراً دينيًّا أو على الايمان باوسع معاني الايمان والتفكير الديني . فنحن اذا تأملنا ذلك وجدنا ان عواطف مختلفة كانت مهداً للتفكير الديني وللاختبار الروحي

ففي الشعوب البدائية كان الخوف اول حافز للانسان على الشعور الديني — الخوف من الجوع والخوف من الحيوانات الضارية والخوف من المرض والموت. ولما كان فهم العلاقات السببية الكائنة بين مظاهر الطبيعة وعللها محصوراً في نطاق ضيّق، كانت النفس البشرية تخلق كائناً شبيهاً بها الى حدٍّ ما ، ترجع اليهِ كل الافعال والاختبارات التي تبعث فيها شعور الخوف . وتأمل ان تسترضي هذا الكائن باعمال وتضحيات تثبت خبرة الشعب التقليدية انها امور ترضيهِ او تكسر من حدة غضبهِ . هذا دين ادعوهُ دين الخوف

ثم يستقرُّ هذا الدين بتكوين طائفة من الكهنة تدعي انها تتوسط بين الناس والكائنات التي يخافونها وبذلك تقبض على زمام السلطة وتحلُّ من الشعب في اعلى مقام . وكثيراً ما يجمع زعيم او طاغية او طبقة من الطبقات التي تستمدُّ قواها من مصادر ارضية ، بين منصب الكاهن ومنصب الحاكم الزمني. او قد تعقد محالفة بين طائفة الكهنة وطائفة الحكام للمحافظة على مصلحة الدولة او الامة حسبما يرونها

وثمّة مصدر آخر لنشوء العقيدة الدينية في الشعور الاجتماعي وما يتصل بهِ من ثواب وعقاب . فالآباء والامهات وكل زعماء الشعوب بشر غير معصومين عن الخطإ ولا بمعزلٍ عن الموت فالتوق الى الاسترشاد والمحبة والمعاونة يخلق في

النفس صورة الله الادبية والاجتماعية . هذا هو ربُّ العناية الذي يحمي ويحكم ويثيب ويعاقب . هذا هو الالهُ الذي يحبُّ ابناءهُ ويمهد السبيل لخلودهم . هو المعزي في الالم والبؤس والجوى المكتوم . هو الحافظ للارواح الموتى . هـذه هي صورة الله الاجتماعية . ومن اليسير ان يتتبع الكاتب تطوّر فكرة الله من ديانة الخوف الى ديانة الاجتماع او ديانة الآداب في كتابات اليهود المقدسة . وديانات اكثر الامم المتحضّرة وخاصة امم الشرق تغلبّ عليها صبغة الديانة الادبية

ومن اهم وجوه التطوُّر في الامم القديمة هو تحوّل الفكرة الدينية فيها من ديانة خوف الى ديانة آداب . ويجب الاّ نخطئ بحسبان ديانات الاقدمين ديانات خوف مجرّد وديانات المتحضرين ديانات آداب مجرّدة . لان الديانات الاولى والثانية انما هي مزيج ، يغلب على الاولى عنصر الخوف ويغلب على الثانية عنصرّ الادب . وفي كلتيهما يتخذ الله صورة انسان

ولكن بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة يرتفعون بفكرتهم الدينية فوق هاتين المرتبتين . وبهم نسمو الى مرتبة ثالثة من الاختبار الديني ادعوهُ « الشعور الديني الكوني » . وليس باليسير تفسيرهُ لمن لا يحسُّ بهِ . لانهُ لا يشتمل على صورة انسانية لله . ولكن من يحسُّ بهِ يدرك بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية الصغيرة ونبل النظام العجيب الذي يكشف عنهُ في عالم الطبيعة وعالم الفكر . ويشعر ان مصير الانسان انما هو قيد لهُ لذلك يحاول ان يختبر الكيان الكوني كانهُ وحدة حافلة بالمعنى

ودلائل هذه الفكرة الكونية تبدو لنا في عهدي ديانة الخوف وديانة الاجتماع . ففي مزامير داود وفي رسائل الانبياء نقع لهُ على أثرٍ جليّ . وعنصر هذه الفكرة الكونية اقوى في البوذية منهُ في المذاهب الدينية الاخرى على ما اثبتتهُ لنا رسائل شوبنهور

وعباقرة الدين كانوا يمتازون في كل العصور بهذا الادراك الديني الكوني الذي لا يعترف بالـهٍ مصنوع في صورة انسان ولا بتحكم رجالهِ . وعليهِ يتعذر عليك ان تجد كنيسة تقوم معتقداتها الاساسية على هـذه النظرة الكونية الى الدين . فقد يتفق لنا اذاً ان نجد بين هراطقة كل العصور رجالاً كانت تدفعهم اسمى البواعث الدينية . فكان بعضهم في نظر معاصريهم ملحدين وكان البعض الآخر ابراراً قديسين . فاذا نظرنا الى ديموقريطس والقديس فرنسيس الاسيزي وسبينوزا من هذه الناحية رأيناهم في صفٍّ واحد

فكيف نستطيع ان تنقل هذا الشعور الديني من انسان الى انسان اذا كان لا يمكننا من تصور الله في صورة ما ولا يأذن بطبيعته في بناء فقه ديني عليه؟ وعندي ان اسمى وظائف الفن والعلم هي ان تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظه متقداً في صدور الناس المستعدين له

من هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كلّ الاختلاف عن النظر المألوف . فدرس التاريخ يحملنا على الاعتقاد بأن العلم والدين ، خصمان يتعذر التوفيق بينهما وذلك لسبب معقول جداً . لان انساناً مشبعاً بروح الناموس الطبيعي في كل حادثة تحدث ويسلّم بفكرة وجود علة لكل معلول ، لا يستطيع ان يسلّم قط بفكرة كائن يعترض تسلسل الحوادث تسلسلاً طبيعيًّا . فلا ديانة الخوف ولا ديانة الاجتماع والآداب تستطيع ان تحلّ في تفكيره وشعوره المقام الاسمى

لذلك رمي العلم ، خطأً ، بهدم آداب الناس لأن سلوك الانسان الادبي مبنيّ على العطف والتهذيب والعلاقات الاجتماعية ، ولا يحتاج الى تأييد ما من العقيدة الدينية . ما اسوأ مصير الانسان لو كنا نحتاج الى اله يرهبه او اله يثيبه على كل ما يفعل في ارغامه على حفظ النظام وحسن السلوك

فمن الطبيعي المعقول ان تقدم الكنائس على محاربة العلم واضطهاد مؤيديه. ولكني اثبت هنا ان «الشعور الديني الكوني» هو اقوى وانبل باعث على البحث العلمي. وليس باليسير على مَنْ لا يقدر نصب الباحثين في فروع العلم ، وما يقتضيه الابداع العلمي من الدأب والتضحية والبذل في كل نواحيه ، وبُعد مرمى الباحث عن الربح المادي ، ان يدرك قوة البواعث التي تفسر الباحثين على كل هذا . اي ايمان ثابت في انتظام الكون واي توق عظيم الى الفوز بلمحة من لمحات الحقيقة ، حدوا بكبلر ونيوتن الى الكشف عن نظام الافلاك في خلال سنين متطاولة من العمل المضنى المملّ !

اما الذين لا يعرفون من العلم — البحث العلمي — الاّ مظاهره التطبيقية فكثيراً ما يخطئون فهم الحالة العقلية في رجال ، كان يحفّ بهم معاصرون هازئون ساخرون ولكنهم ثبتوا على ما هم فيه فشقوا طريقاً للارواح المواخية لهم في كل البلدان وعلى مدى العصور المتطاول . ولا يستطيع ان يتصور مصدر الوحي الذي يدفع بهؤلاء الرجال الى الثبات والتضحية والمثابرة رغم كل فشل ورغم كل سخرية ، الاّ مَن وقفوا حياتهم على هذه الاغراض النبيلة. هو الشعور الديني الكوني الذي يحركهم ويمنحهم القوة!

لقد قال احد الكتّاب المعاصرين — وصدق فيما قاله — بان الناس المتدينين حقًّا في هذا العصر المادي هم رجال البحث العلمي !